

الأنموذج النازى

إن حقيقة حيوان برلين - منذ منتصف القرن الثامن عشر وإلى اليوم - تعد رثة المدينة وجنتها الخضراء الوارفة ... حيث تمتد مساحات شاسعة من أراض تضم خمائل ويحيرات وغابات لتربط ضواحي المدينة فى الغرب بقلبها السياسى والثقافى فى الشرق. أما المعمارى النازى "ألبرت شبير" صاحب الخطة الجنوبية لتحويل برلين إلى "جرمانيا" كعاصمة جديدة لرايخ "الألف عام" - فقد خطط لإجراء بعض التعديلات الطفيفة فحسب، وارتأى تحويل الحدود الجنوبية للمدينة إلى حى ببلوماسى بديع.

لقد كانت الأراضي المتاخمة لحديقة الحيوان مرتفعة الثمن، إلا أن "شبير" أمكنه الركون إلى السياسات النازية أملا في منقولات عقارية ذات أسعار زهيدة. فعلى سبيل المثال، وفي عام ١٩٣٨، قامت إحدى أكثر العائلات اليهودية شهرة في برلين (عائلة مندلسون بارتولدي التي ينتمى إليها الموسيقار الألماني الشهير فيلكس مندلسون) - بالارتحال عن المدينة وبيع منقولاتها العقارية بمبلغ باهظ للغاية (١٧٠٠٠٠٠ مارك ألماني). وبذا، استطاع "شبير" الحصول على قطعة أرض جديدة بيد أنها صغيرة. لذا، فقد أهدتها الحكومة الألمانية إلى إحدى القوى الأوروبية الصغرى - آنذاك - مملكة يوغوسلافيا.

أما بلدية المدينة فقد عمدت إلى تقويض بيت عائلة مندلسون بارتولدي، وأسندت إلى المعماري "فرنر يوليوس مارش" مهمة بناء السفارة اليوغوسلافية. هذا، ويعد مجمع الألعاب الأولمبية ببرلين أكثر أعمال "مارش" شهرة. فالاستاد

ذو الحجارة غير الصقيلة والخطوط الهندسية الحادة والمدخل الجليل المهيّب ليعد إحدى العلامات المعمارية البارزة لألمانيا النازية. وقد عمد "مارش" فى بنائه للسفارة اليوغوسلافية إلى اعتماد خطوط مماثلة ... فجدرانها ذات الحجارة الجيرية الرمادية تستدعى صرامة متناهية وصلابة بالغة، أما نوافذها الصغيرة بقضبانها الحديدية السوداء فتجعلها أشبه بقصر إيطالى نمطى. وقد افتتحت السفارة فى عام ١٩٤٠، ولم يمض سوى عامين حتى اجتاح هتلر يوغوسلافيا ليقوم النازيون بمصادرة السفارة وإعطاء المبنى لوزارة الرايخ للأقاليم الشرقية المحتلة (الأوستانستريوم).

كان الدور المنوط بالأوستانستريوم ذا أهمية قصوى فى فكر هتلر ورؤيته. فجماع ما تم إحراره فى الحرب حتى ذلك الحين من غزو لأوروبا الغربية وهجوم على بريطانيا ومعارك فى الشمال الإفريقى، كان وسيلة لغاية أبعد ... إذ تمثل

الحلم الهتلري في تدشين إمبراطورية ألمانية مترامية الأطراف ... إمبراطورية يمكن أن تمتد حدودها شرقا لتشمل بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا وروسيا. ولقد كان يحلو لهتلر أن يطلق على روسيا اسم "الهند الألمانية"، فروسيا بلد بحجم قارة ذو موارد ما لها من نفاذ ... فالحلم الهتلري، آنذاك، كان مؤداه أن تصير مجمل الأراضي الممتدة إلى حدود الأورال تحت السيطرة الألمانية، على أن تعمل ألمانيا على إعادة ترسيم الحدود السياسية وتنظيم هياكل الجماعات الإثنية داخل الأراضي المحتلة. أما باقى الأراضي الروسية فيترك النظر بشأنها إلى مرحلة لاحقة. وكان مخططا للأوستمنستريوم أن يشرف على ذلك التحول الهائل، إذ كان التفكير بشأنه قد شرع فيه فى نيسان/ أبريل ١٩٤١، حين كانت ألمانيا تضع خططها للغزو. ومن الوجهة النظرية، لم يكن للجيش الألماني إلا القليل ليضطلع به بشأن الأراضي المحتلة، إذ توجب عليه سرعة تسليم إدارتها إلى الأوستمنستريوم.

هذا، وقد عهد بإدارة الأوستمنستريوم إلى واحد من أصدقاء هتلر القدامى، ألا وهو "ألفريد روزنبرغ" الذى ولد فى الثانى عشر من كانون الثانى/ يناير ١٨٩٣ فى ريفال (وهى اليوم تالين فى استونيا التى كانت جزءا من الإمبراطورية الروسية). وقد هاجر روزنبرغ إلى ألمانيا فى أعقاب الحرب الكونية الأولى، وتحديدا فى عام ١٩١٨ ... وسرعان ما انضم إلى حركة "القوميين الاشتراكيين" أو "النازيين"، بل لقد قاد الحركة بنفسه نيابة عن هتلر الذى سجن لفترة وجيزة بعد انقلاب فاشل شارك فيه عام ١٩٢٣ عرف باسم انقلاب "حانة البيرة" ... Bierkeller Putsch تلك الفترة التى كتب فيها هتلر كتابه الشهير "كفاحي". إلا أن روزنبرغ لم يكن لتتلاءم طبيعته والمنازعات البيروقراطية داخل الحركة. لذا، فقد تم إقصاؤه على نحو متمهل حيث أضحى يشار إليه فى سخرية بلقب "الفيلسوف". هذا، وقد قام روزنبرغ

بتحرير جريدة الحزب النازي Volkischer Beobachter، كما كتب دفاعا عن العنصرية في مؤلف سماه "خرافة القرن العشرين: تقييم المواجهات الروحانية/ الثقافية في عصرنا الحالي". وحين أمسك النازيون بزمام السلطة عام ١٩٣٣، لم يعهد لرونبرغ بإدارة أى من الوزارات المكونة، إلا أنه قد واصل إدارته لمكتب السياسة الخارجية.

لقد كان لرونبرغ أفكار ورؤى محددة بشأن ما استولى عليه النازيون من أراض. فلكونه ألمانياً ذا أصول بالطيقة، تعاطف رونبرغ مع الأقليات غير الروسية في الاتحاد السوفييتى ... إذ كتب في مرحلة مبكرة (١٩٢٧) أن التعامل مع الاتحاد السوفييتى يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الحركة الانفصالية الفتية في أوكرانيا والقوقاز. كذا، فقد أزمع أن يستخدم وزارته لإنشاء حاجز من البلدان ليحيط بباقى الاتحاد السوفييتى ... وهو الأمر الذى يعنى، على الأقل، استقلالا اسميا (سوريا) لأوكرانيا وروسيا البيضاء، وبلدان البلطيق، والقوقاز وتركستان.

ثم شرع رونبرغ يستوزر أفرادا لوزارته الجديدة التى ضمت قسما سياسيا للإشراف على نطاقات جغرافية عديدة كأوكرانيا والقوقاز ودول البلطيق. كذا، فقد انتظمت الوزارة عدة من أقسام أخر للإشراف على الثقافة والصحافة والشباب والمرأة والصحة والقانون والمالية والزراعة والغابات - أى الإشراف على سائر مناحى الإمبراطورية الجديدة.

كذا، فقد بحث رونبرغ كثيرا فى أروقة "الحزب النازي" وضمن كوادر وزارية أخرى سعيا لانتقاء قيادات واعدة ... إذ كان يدير منظومة ذات نفوذ، ومن ثم وجوب اجتذاب خيرة المواهب والخبرات لها، إلا أن قلة فقط هى من ألفت للأمر بالا. هذا، وقد تمركز النفوذ فى المؤسسات النازية كأسراب الدفاع لا فى الوزارات

الحكومية. وعلاوة على ذلك، فقد كانت مخططات روزنبرغ تتعارض والكثير من أفكار هتلر الشخصية ... هتلر، الذي رغب في استبعاد كثير من الشعوب التي أراد روزنبرغ إقامة تحالفات معها. وسرعان ما كانت الكفاءات والخبرات التي حرص روزنبرغ على انتقائها تستبعد ويتم إقصاؤها، تلك الكفاءات التي كانت ضحية الصراعات السياسية وضعف روزنبرغ ... إلا أن "غرهارد فون منده" كان استثناء من القاعدة.

وقد كان "فون منده"، آنذاك، يقطن الحى الراقى المتاخم لقصر شارلوتنبرغ، وهو المقر الصيفى القديم للملك بروسيا. أما الرحلة فتقطعها العربة فى نصف الساعة للانتقال إلى مقر الوزارة، إذا فهي رحلة أكثر يسرا من تلك التي يستغرقها الذهاب إلى برلين الشرقية حيث توجد الجامعة. وفى ذلك الوقت، كان "فون منده" وزوجته قد رزقا مولودين: ابنة (برغليوت ١٢/٢٧/١٩٣٧)، وابن (ايرلنغ ١٠/١٠/١٩٤٠).

عُهد إلى "فون منده" الإشراف على "إدارة القوقاز" بالوزارة، وذلك تحت إشراف "جورج لايبانت". وكان "فون منده" قد استقطب جماعة من رجال ظلوا فى المنفى لسنوات، حيث كان جلهم منتميا إلى إحدى الحركات المناهضة للاتحاد السوفييتى، وهى حركة "برومثيوس" التي أنشئت عام ١٩٢٥ بواسطة رجال راوهم الأمل فى أن يؤدي تقويض أركان الإمبراطورية القيصرية الروسية إلى تحرير أفراد الشعوب المنتمين إلى الإمبراطورية من قبضة الحكم الروسى. وحين جرت الرياح بما لم تشتهي سفنهم، عمد أفراد الحركة إلى تحرير المنشورات والتحريض على الثورة ضد موسكو، وذلك من العاصمة البولندية وارسو، ثم من باريس. وبحلول الثلاثينيات، كانت الحركة تتلقى دعما وموازرة من كل من الاستخبارات الفرنسية والبولندية والبريطانية والألمانية. وقد أدى الغزو الألماني لفرنسا إلى إخضاع الحركة

بالكامل للسيطرة الألمانية.

وكان "فون منده" يعرف بعضا من رجال تلك الحركة، بل قام بتجنيدهم حتى قبل أن يعمل لدى الأوستمنستريوم. وفي أعقاب الحرب، سيضطلع بعض "البرومثيين" من أمثال "ميخائيل كيديا" من جورجيا و"على قنطمير" من تركستان بأدوار بالغة الأهمية ارتبطت بعلاقات فون منده المتشابكة بالولايات المتحدة الأمريكية. كذا، فسيضحى "قنطمير" لاعبا رئيسيا في أحداث مسجد ميونيخ.

إلا أن رجلا واحدا سيبرزهم ويفوقهم أهمية خلال الحرب، وما بعدها ... ألا وهو "ولى قيوم" - ذلك الناشط السياسي الأوزبكي الذي وجه خطابه إلى الأسرى المسلمين، بمن فيهم "غريب سلطان"، في مخيم أسرى الحرب كما أوردنا آنفا. وفي البدايات، لم يكن "ولى قيوم" ذا أهمية تذكر في حركة "برومثيوس"، إلا أنه سرعان ما صعد نجمه وعلا كعبه كأبرز لاجئي آسيا الوسطى في أعقاب وفاة "مصطفى شوقاي" ٢٥ - الذي كان وزيرا للخارجية بحكومة ثورية بطشقند لم يطل عهدها. ورغبة منه في تعزيز مكانته، أضاف "ولى قيوم" لقب "خان" الشرفي إلى اسمه. هذا، وقد سر الألمان صعود نجم "ولى قيوم خان" بسبب تعاونه مع النازيين منذ الثلاثينيات، إذ اعتبروه مخلصا وموثوقا. وقد تبني النازيون الرؤية ذاتها: بناء جيوش تركية مسلمة لمحاربة السوفييت.

كان "فون منده" مدنيا، إلا أنه مع دوران عجلة الحرب اعتبره النازيون عنصرا أساسيا في نجاحهم. وفي عام ١٩٤٢، قام قائد "أسراب الدفاع" - "هاينريش هيملر" بإطاحة "لايبرانت" بعيدا عن الأوستمنستريوم، وتنصيب أحد الموالين له أملا في السيطرة على ذلك التنظيم المنافس. أما "فون منده" فلم يتأثر بالسلب جراء إعادة تنظيم الأوستمنستريوم، بل تمت ترقيته من رئيس "قسم القوقاز" إلى رئيس

"الشعوب الأجنبية" - حيث كانت مهمته، بالأساس، تتمثل في الإشراف على سياسة الأوستمنستريوم تجاه الأقليات السوفيتية. أما لماذا ... فلأن "فون منده" قد تبنى نهجا عبقريا لتحفيز تلك الأقليات ودغدغة مشاعرها، وهو الأمر الذي ستكون له أصداء واسعة خلال سنى ما بعد الحرب الكونية الثانية.

أما "غريب سلطان"، فقد ورد برلين حين كانت خطط فون منده أخذة في التبلور. ففي عام ١٩٤٢، أرسى فون منده "مكاتب اتصال" لمنح الجنود بعضا من تمثيل في التراتبية الهرمية النازية ... تلك المكاتب التي سرعان ما انخرطت بشدة في مجريات النشاط السياسى. وفي أوائل العام ذاته، عمد الأوستمنستريوم والجيش الألماني إلى تدشين حملة دعائية في شبه جزيرة القرم التمس فيها جنودا من التتر. ولكم كانت النتائج عظيمة: فمن بين قرابة مائتي ألف تترى يحيون في شبه الجزيرة، كان عشرة آلاف مجندين في صفوف الجيش الأحمر ... إلا أن عشرين ألفا قاموا بالتطوع استجابة لتلك الحملة الدعائية، ويمثل هذا العدد قرابة مجمل تعداد الذكور في الفئة العمرية الممتدة من ١٨ عاما حتى ٣٥ عاما ممن لم يكونوا منخرطين بالفعل في القتال لصالح السوفييت ... وما كان للألمان قدرة على حشد أعداد كذلك إذا ما عمدوا إلى التجنيد الإجبارى.

لقد ارتكن هذا النجاح إلى إقناع الجنود في الميدان بأن "مكاتب الاتصال" تلك، هي -بحق- أشباه حكومات في المنفى ... تلك المكاتب التي أحييت الأمل لدى مختلف الجماعات الإثنية غير الروسية بأن الاستقلال لا بد أت ذات يوم، حتى ولو كان النازيون، في حقيقة الأمر، غير عازمين على منحهم استقلالهم المنشود. هذا، وسوف تعتمد ألمانيا الغربية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى مضاعفة حجم "مكاتب الاتصال" تلك، وزيادة أعداد العاملين بها، بعد نهاية الحرب، سعيا منهما إلى تنظيم صفوف المسلمين وحشد أفرادهم.

وقد التحق "سلطان" بمكتب الاتصال التتري كبقوق للدعاية ... ذلك المكتب الذي أدار محطة إذاعية وفرقة للرقص ومسرحا، فضلا عن بعض من صحف عهد إليها بدور محوري في تلك الجهود. ففيما عدا صحيفة وجهت للجورجيين، وأخرى خاطبت الأرمن ... صدرت الصحف الأخرى أخذا الجنود المسلمين بعين اعتبارها. وقد تضمنت تلك الصحف، صحيفة "الكلمة الجديدة"، وصحيفة "المتطوع"، وصحيفة "الحرب المقدسة" أو "الجهاد". كذا، فإن صحفا كثيرة أخرى كانت تستهدف - بالأساس - الجنود من نوى الإثنيات التركية ... من بينها صحيفة "ملى تركستان" - أي تركستان الوطن، وصحيفة "بني تركستان" - أي تركستان الجديدة، والصحيفة التي كان يصدرها "غريب سلطان" واسمها "إيديل أورال" - أي أورال الفولغا. كذا، فقد أدار "سلطان" لاحقا الصحيفة الألمانية التترية.

إن صحيفة "إيديل أورال" كانت تراقب من قبل مكتب الدعاية النازية التابع للجيش الألماني ... ذلك المكتب الذي كان يرقدتها بمعظم الأخبار والمعلومات الواردة بها. إن كثيرا من المقالات بالصحيفة كانت مستقاة رأسا من صحف نازية كصحيفة "المراقب الشعبي" Volkischer Beobachter، وصحيفة "الهجوم" Der Stürmer. وكثيراً ما كانت تلك الصحف تحوى كتابات معادية للسامية وعلى سبيل المثال، زعمت صحيفة إيديل أورال أن رؤساء العمال اليهود كانوا يستقلون أعضاء الاتحادات العمالية الشرفاء المُجدين في المجتمعات الغربية - وهي مزاعم نمطية معيارية سادت آنذاك.

وبعد ذلك بسنوات قلائل، وعقب أن وضعت الحرب أوزارها - شرع "سلطان" يدون خاطراته في مذكرات مطولة ... وكتب يقول: "إن الغالبية العظمى من المواضيع (الألمانية) التي وردت في تلك الصحف كان خطأ أقتترف ... ليس لكون ترديد الدعاية النازية عملاً لا أخلاقياً، وإنما - ووفقاً لأسس براغماتية - لم ير

الفيلقيون التتر فرقا بين الدعاية النازية وتلك السوفييتية. لقد كان بإمكان تلك المطبوعات أن تكون أجدى وأبعد أثرا، إن كانت قد اعتمدت نهجا أكثر حيادية وموضوعية.

على أن الأقليات السوفييتية لم تكن جميعها قلقة بشأن أمور تكتيكية كذلك. إذ رأى عدد من تلك الأقليات مأزقا أخلاقيا معضلا في القتال ضمن صفوف النازي. ولعل أشهر أفراد تلكم الأقليات - الشاعر البارز موسى جليل الذي قاد مجموعة سرية تترية لمقاومة النازيين، إلا أنه أُعتقل مع رفاق له في سجن "موبايت" سيئ السمعة حيث أُعدم في الخامس والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٤٤. ٣٦

لاقى النازيون صعوبات جمة في اختيار أفراد لإدارة مكاتب الاتصال ... إذ كان ينظر إلى رئيس الجماعة التترية على أنه سكير يفتقر إلى الخبرة. أما "سلطان"، فكان يعد ملائما لذلك المنصب، إلا أنه كان لا يزال قاصرا، آنذاك، (إذ لم يكن قد أكمل الحادية والعشرين بعد)، ومن ثم لم يُقبل في المنصب المذكور. أما اللجان فكانت تترنح متخبطة إذ لم يكن لديها بعد قوة حقيقية ... قوة تشير إلى كيفية قيام الدين أو الهوية القومية - (والأمل الضعيف في تحقيقها) - بتحفيز البشر ... وهو درس غال وعبرة بالغة سيعمد آخرون إلى الإفادة منه لاحقا.

في العشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٤٢، وخلال مؤتمر عقد في ضاحية Wannsee البرلينية، تبلورت مخططات الهولوكوست. ورغم أن اغتيال اليهود قد بدأ قبل ذلك، فإن المؤتمر قد استدعى ما للدولة من قوة بيروقراطية وشمولية تضافرتا ضدهم. أما الحضور فتمثل في لفيف من وزراء قياديين ومسؤولين نازيين. هذا، وقد استغرق المؤتمر تسعين دقيقة فحسب، إلا أن رسالته كانت واضحة جلية: لقد بات في مقدور الدولة تنسيق الجهود صوب رافد جليل بعينه.

أما الأوستمنستريوم، فقد كان ممثلاً في المؤتمر في شخص جورج لايبيرانت، وألفريد ماير الذي كان، آنذاك، نائباً لألفريد روزنبرغ. هذا، وقد تباحث المسئولون حول تعريف يتاح بمقتضاه تحديد من يمكن اعتباره يهودياً، بحيث يتم إعداد الأراضي الشرقية وتهيتها لإقامة الألمان بعد أن يتم طرد اليهود وآخرين من غير المرغوب فيهم.

وبعد انقضاء المؤتمر بتسعة أيام، عقد الأوستمنستريوم الاجتماع الأول من ضمن عدة اجتماعات لاستبعاد التفاصيل القانونية التي نشأت عنه. وعلى الرغم من أن قوانين نورمبرغ العرقية قد حددت بدقة من يمكن اعتباره يهودياً، إلا أن الأوضاع في الأراضي الشرقية قد انطوت على بعض تعقيدات: فالتوثيق غير الكفء في السجلات قد جعل من تتبع الجذور العرقية لشخص أو آخر أمراً صعباً، ولكن النازيين كانوا يريدون قتل اليهود بسرعة دون ترو أو تحقق... إذ رغب العديد منهم في معايير سلسلة مرنة تتيح للمسئولين القتل ما ارتأوا ذلك مناسباً. وكان "قون منده" واحداً من عديد من بيروقراطيين القيادة الوسطى ممن شاركوا في الاجتماع. أما محضر وقائع الاجتماع فقد خلا من أية تعليقات ربما كان قد أوردها. كذا، فإن سجلات الأوستمنستريوم لا تسفر عن أية جهود من قبل "قون منده" لاستخدام نفوذه في إبطاء وتأثر قتل اليهود، أو إبداء أية اعتراضات في هذا الشأن. هذا، ويبقى في حكم المؤكد أن "قون منده" كان يعلم بشأن الإبادة الجماعية لليهود" بحلول كانون الثاني/ يناير ١٩٤٢ .

هذا، ولا يتناسق سلوك كهذا مع صورة "قون منده" بعد الحرب... إذ كان يحلوه، آنذاك، تصوير نفسه بأنه الصديق الأوفى للأقليات الإثنية السوفيتية. وقد كان "قون منده" أحد المصادر الهامة للمعلومات للمؤرخ "الكسندر دالين" من جامعة هارفارد الأمريكية، والذي يعد كتابه "الحكم الألماني في روسيا"، الصادر عام

١٩٥٦، واحدا من المراجع الأساسية التي تناولت الاستيطان النازي. وكان "دالين" دائما ما ينعى "قون منده" بأنه "نصير الأقليات الأول وحاميها" - طراز فريد لشخصية خيرة تسعى للذب عن مصالح تلك الأقليات ولا تألو جهدا في تعهدتها بالرعاية. إلا أن "دالين" لا يذكر مطلقا كتابات "قون منده" المعادية للسامية في فترة ما قبل الحرب، كذا فهو يتغافل عن مشاركة "قون منده" في الاجتماعات التي تناولت "الهولوكوست"، إما عن جهل أو غفلة، وإما حرصا منه على التستر عليه.

ولقد كان يحلو لفون منده وللمسلمين المحيطين به بعد انقضاء الحرب إيراد بعض القصص عن يهود الجبال، الذين يعرفون أيضا بيهود "التات" ٢٧... ويشكلون فيما بينهم قبيلة تحولت إلى الديانة اليهودية. هذا، وتعضد الدراسات الحديثة مزاعم "قون منده" من أن يهود الجبال كانوا مُشتملين بالحماية، إلا أن أوراقه الخاصة لتسفر عن مدى تورطه في "الهولوكوست". وبعد الحرب، كتب "قون منده" يقول: "إنني ما أزال أذكر، ببعض من هلع، مؤتمر اليهود الشرقيين كان قد عقد في برلين إبان الحرب ... إذ أوكل إلي، آنذاك، مهمة بغیضة تمثلت في إرسال التماسات إلى أولئك الشرقيين للمساعدة في الإجابة عن بعض أسئلة. وقد قمت بإعداد قائمة طويلة بالتماسات نبتت من نهج براغماتي، فكانت الأسئلة على شاكلة: ما تاريخ شبه جزيرة القرم - ومنّ التات - (كان المفترض إدراجهم كيهود)". وبعبارة أخرى، فقد تناول "قون منده" الاهتمام النازي بالمسألة اليهودية بجدية بما أتاح تحديد من سيقتل من اليهود، ومن سيبترك حيا.

إن تذكر "قون منده"، في أعقاب الحرب، لأحداث ماضية تذكرنا ارتبطت ببعض من هلع" ليتمكن النظر إليه على كونه دليل ندم ... أو لعله كان إدراكا منه بأن ضلوعه السافر في "الهولوكوست" قد أدى إلى تدمير مستقبله الأكاديمي، ما جعل تحوله من "الأكاديميا" نحو عالمي "السياسة" و"الجاسوسية" أمرا لا رجعة عنه.

وفيما كان الجيش الألماني يمضي قدما - عام ١٩٤٢ - إذ اخترق مناطق ذات كثافة سكانية مسلمة، مستوليا على شمال القوقاز في آب/ أغسطس من ذلك العام. وحين أعلن لواء ألماني - هو "ارنست كوسترنغ" - عن إعادة فتح المساجد هناك، قام المواطنون المبتهجون بحمله على الأعناق وقذفه عاليا في الهواء وسط صيحات نشوتهم: "مرحى ... مرحى". إلا أن حقيقة الأمر تمثلت في كون قاطرة الزحف الألماني قد بدأ ينفذ وقودها - إذ كانت هزيمة ستالينغراد تلوح في الأفق. أما حينها، فقد بدأ الأمر سلسا مطواعا.

أدت الانتصارات العسكرية إلى زيادة اهتمام ألمانيا بالأقليات ... إذ سعت وزارة الخارجية إلى الهيمنة على قادة الأقليات اللاجئة، وبخاصة أولئك الذين بداخل حركة "برومثيوس"، إلا أن النصر كان حليف الأوستمنستريوم في النهاية. وكان الظافر الكبير ... غرهارد فون منده، إذ دانت له - رسمياً - المسؤولية عن جميع الأقليات ذوات الإثنية التركية، بمن فيهم أولئك اللاجئون من آسيا الوسطى ... وهو الأمر الذي مفاده كونه مسئولاً عن جميع لاجئي ذلك الإقليم فضلا عن مسؤوليته عن إيجاد حلول لمشاكل ذات بال، ككيفية توظيف "الإسلام" لتحفيز اللاجئين واستنهاض همهم للوفاء بالمتطلبات الألمانية المختلفة.

ثم عمد "فون منده" إلى تعضيد "مكاتب الاتصال" وإعلاء شأنها. وكان جل هيكل العمالة بتلك المكاتب من اللاجئين، وذلك خلافا للمعينين حديثا في الجيش الألماني، ووحدات "أسراب الدفاع" القتالية، والذين كانوا جنودا سابقين في "الجيش الأحمر". كذا، فقد قام "فون منده" بإدراج "اللاجئين" على قائمة من يتلقون رواتب من الأوستمنستريوم، وإعادة تسمية "مكاتب الاتصال" لتصبح "مكاتب الإرشاد والتوجيه"، ثم "اللجان القومية" ... وهو تعديل لفظي أريد به أن يقوم اللاجئون بإرشاد الجنود في ميدان المعركة وتوجيه الأهالي نحو أوطانهم، كما لو كانوا

يشكلون حكومات وليدة فى المنفى.

أعقب ذلك قيام "فون منده" بالسماح لمكاتب الإرشاد والتوجيه بتسمية العاملين الذين سيعهد إليهم بإدارة الوحدات العسكرية بما يكرس الانطباع بأن الأقليات كانوا يقومون على شئونهم بأنفسهم. وبحلول عام ١٩٤٢، سمح "فون منده" للأذربيجانيين وتتر الفولغا والتركيستانيين بعقد اجتماعات من أجل تشكيل لجان "ممثلة" ... أشبه ما تكون ببرلمانات مصغرة تسعى لجعل أصوات تلك الأقليات مسموعة. وكانت لجنة الوحدة القومية التركيستانية، التى ترأسها "ولى قيوم خان"، أبرز تلك اللجان.

أما "قيوم" فكان تحت حماية "فون منده" المباشرة ... "قيوم"، ذلك القائد المسلم الذى ردد شعارات النازى ببراعة وإتقان. فمرارا، أبدى "قيوم" إيمانه بألمانيا مهاجماً أعداءها بأنهم أعداء تركستان، ولقد كان للجنة التى ترأسها صحيفة تصدر باللسان "التركى". ومن خلال الصحيفة، واسمها "مللى تركستان" - أى تركستان الوطن - شن "قيوم" هجوما عنيفا على "البلدان الإمبريالية الديمقراطية الليبرالية"!! ... واصفا إياها بأنها عدو من أعداء تركستان.

إلا أن المنحى السياسى الذى انتهجه "قيوم" كان منفرا، إذ جعل الناس ينفضون من حوله ... الأمر الذى ظل يطارده فى حقبة ما بعد الحرب. فى عام ١٩٤٤، اصطدمت جماعة من القيرغيز والقازاخستانيين فى لجنة الوحدة القومية التركيستانية بولى قيوم، وذهبت لتناشد الأوستمنستريوم ملتمة تمثيلا مستقلا لها ولفيالقها. وقد واجه "قيوم" ذلك التوجه بانتقام وحشى شاجبا إياها لدى "الغستابو"، وما قد ينطوى عليه الأمر من تقديم خصومه المنشقين عليه إلى منصة الإعدام ... إلا أن "الغستابو" قد ضرب صفحا عن الأمر فأسقط الاتهام معتبرا إياه

مشاحنة بين اللاجئين. وكديده في حالات عديدة لاحقة، سيهرع "فون منده" لمد يد العون إلى "ولى قيوم" المشمول برعايته عامدا إلى تنظيم مؤتمر تركستانى فى فيينا حيث اختير "قيوم" ليترأسه.

لقد اكتست تلك الأحداث حلة من زيف وغلالة من كذب ... فمع تقهقر قوات الجيش الألماني، فقدت ألمانيا السيطرة على ذلك الإقليم الذى كان من المفترض أن يقوم الأوستمنستريوم بالإشراف عليه ... بل لقد كان منزل "فون منده" نفسه تحت الحصار. وفى عام ١٩٤٤، عمد الرجل إلى إخلاء منزله وترحيل عائلته إلى إحدى الضواحي الريفية ... ذلك الإخلاء الذى سرعان ما أعقبه تفجير للمنزل جراء غارة جوية استهدفته.

لقد تواكب ذلك مع تنامى وتيرة جهود "فون منده" التى بلغت منحى رابيا. أجل ... قد يكون يأسا، أو لعله المنطق الصارم فى حالة "فون منده" تلك، والذى مؤداه: إن أولئك المسلمين يريدون أن يخوضوا قتالا لمصلحتنا، إذا، فما علينا سوى أن نمنيهم ببعض وعود. دع عنك أن لا نية لدى النازيين للوفاء بآية وعود، إلا أنه يسعدهم أن يتركوا "فون منده" ينظم اجتماعا هنا وآخر هناك، والخلوص إلى خطط "خيالية" إذا كانت تقود الجند المسلمين للقتال بعزيمة أكثر مضاء بغية تحجيم السوفييت وعرقلة تقدمهم.

على أن "غرهارد فون منده" قد يمكنه، فى أعقاب الحرب، الزعم بأن المسلمين السوفييت لم يكونوا "مسلمين" بما تعنيه الكلمة - ربما للحرص على تفادى انتشار المخاوف من كونهم مهوسين دينيا. إلا أن "فون منده" ذاته، بالتوازي مع آخرين، قد حرص جهده على ترسيخ "هوية إسلامية" بين صفوف أولئك الجنود. وقد عمد "فون منده" ورفاقه إلى تحقيق ذلك عن طريق موازنة قائد مسلم بارز، وعقد ندوات إسلامية.

أما المؤازرة فجاءت من الشيخ/ أمين الحسيني، مفتي القدس ... الذي ينحدر من عائلة ضمت رجال دين مبرزين. وقد ورث الحسيني منصبه كمفت للقدس عقب وفاة أخيه "كامل الحسيني"، حيث شرع يبني قوته ويرفد نفوذه، وهو الذي رأى في "النازي" حليفاً لبلاده في وجه البريطانيين الذين كانوا يسيطرون، وقتها، على وطنه الأم، فلسطين. وفي أثناء الحرب الكونية الأولى، قام أمين بالفرار من فلسطين واتخذ طريقه صوب القارة الأوروبية، حيث التقى هتلر ودشن دعاية نازية معادية للسامية، فضلاً عن متابعة القوات المسلمة. هذا، وقد أضحى الحسيني، بعد الحرب، معارضا لودا لإسرائيل، كذا فقد كانت له اتصالات شخصية مع السواد الأعظم من المجموعات الساعية باستماتة للسيطرة على "الإسلام" في ميونيخ. وفي عام ١٩٤٣، عزم "فون منده" على البحث عن قائد ديني لتتر القرم وذلك ليلبس الحكم النازي إهاباً دينياً ... وهنا سعى للبحث عن "أمين الحسيني".

"إن العالم الإسلامي لكتلة متجانسة" ... هذا ما كتبه "فون منده" لاحقاً في معرض تبريره لأفعاله مردفاً: "يجب أن يكون التوجه الألماني إزاء مسلمي الشرق بحيث لا يضر بمكانة ألمانيا بين الشعوب الإسلامية".

وبعبارة أخرى، فإنه يمكن لألمانيا أن تخطب ود العالم الإسلامي عن طريق تنصيب مفتياً لشبه جزيرة القرم. هذا، وقد التقى كل من "أمين الحسيني" و"غرهارد فون منده" ثانية في تموز/ يوليو ١٩٤٤. حينها ... كان الجيش الأحمر قد استعاد سيطرته على شبه الجزيرة. أما "الحسيني" فقد ذكر أنه بأخذ العوامل القائمة بعين الاعتبار، يبقى تنصيب مفتٍ أمراً غير ذي موضوع، في حين ذهب "فون منده" في دفاعه عن رأيه فجاءاً آخر. أما في حزيران/ يونيو ١٩٤٤، فقد اضطلع "فون منده" بالتعاون مع "برتولد شيبولر" - الباحث في تاريخ أوروبا الشرقية وخبير الدراسات الشرقية واللسانيات الفارسية - بإنشاء مدارس "دينية"

تقدم خلالها دورات لتأهيل الدعاة Mulla-Lehrgange، وذلك في كل من "غوتينغن"، و"دريسدن".

إلا أن ذلك لم يفلح في إنقاذ النازيين. ففي بدايات عام ١٩٤٥، تم قصف بنايات الأوستمنستريوم ومقاره، فضلا عن تدمير العديد من الملفات التي كانت محفوظة بداخله. أما "فون منده"، فلم يتبق لديه إلا ورقة وحيدة بوسعه استخدامها. فعلى امتداد الأشهر التي سبقت القصف، كان الأرجح أن يكون "فون منده" قد خطط لأن تنتقل الوحدات المسلمة إلى الجبهة الغربية بحيث تتمكن القوات الأمريكية والبريطانية من اقتناصها - إذ كان الوقوع في أيدي السوفييت - آنذاك - يعني الموت المحقق لا محالة.

أما الوحدات، فقد تداعت أركان العديد منها وانفرط عقدها ... حيث انضم الكثير من أفراد "أسراب الدفاع" إلى المقاتلين في تشيكوسلوفاكيا، في حين تمردت كتيبة جورجية ضد الألمان. وفي شباط/ فبراير ١٩٤٥، أعلنت تركيا الحرب على ألمانيا، في ضربة عنيفة للروح المعنوية لجنود الأقليات المسلمة. أما "ألفريد روزنبرغ"، فقد ذهب إلى القول بأنه عازم على الاعتراف باللجان القومية واعتبارها "حكومات" - على الرغم من كون وزارته قد ألغيت رسميا. حتى "غريب سلطان" ... قد نال ترقية، إذ شكل التتر حكومة مؤقتة في بدايات عام ١٩٤٥ جعلوه يتراأس إدارتها الحربية.

بيد أن جهود "فون منده" كان لها وظائف هامة، وبخاصة ما ارتبط بالتوظيف السياسي للإسلام بعد انقضاء الحرب الكونية الثانية. إن بمقدور الأقليات المسلمة الزعم بأنها كانت تجاهد في سبيل إرساء أشبه ما يكون بحكومة منفى، لا في سبيل تحقيق المصالح النازية. فعوضا عن خليط من دوافع متنافرة لا ينتظمها رابط

تراوحت ما بين رغبة فى الهروب من مخيمات لاجئى الحرب المخيفة، ونزعة انتهازية محضة ... أمكن لتلك الأقليات الزعم بأنقى الدوافع وأرقاها فى تبريرهم لفعاليتهم: "التحرر الوطنى". ودع عنك كون المنظمات والتكوينات المسلمة هى صنيعه ألمانية بالأساس أريد بها بقاء القوات واستمرار وجودها فى ساحات القتال. إن الأساس المنطقى لتحرير شعب ما من القمع السوفييتى ليحكم بلاده بنفسه، ولتكون له حرية المعتقد والممارسة الدينية - يمكن أن يسوغ تلك الجهود برمتها مانحا التمهيد ومشرعاً الأبواب أمام الأصدقاء الجدد للمسلمين ... إنهم الأمريكيون - أولاد العم سام.